أغلاط شائعة في تعريف «الأدب القومي»

بقلم نازك الملائكة

لعل الموضوعات التي يكثر الكلام فيها هي دائما احرج الموضوعات واكثرها مزالق . ذلك ان جوانبها تصبح – بسبب كثرة المتحدثين فيها – مثقلة بعشرات من الانطباعات والملامح المضللة . ولقد يسري خطأ ما وتتناقله الاوساط حتى يصبح رايا متعنتا طاغيا لا يجرؤ احد على مناقشته . والحق ان للاغلاط الشائعة جبروتا وطغيانا بحيث يحتاج المرء الى ان يكون جريئا كل الجراة اذا هو اراد ان يصيح في وجهها ويحتج عليها . ولكن للحقيقة صولة ، ولا بد لكل خطأ جسيم ان ينهار يوما امام معول الحق .

ولقد كان موضوع الادب القومي احد هذه الموضوعات الشائعة التي اثارت اهتمام الجماهير والادباء والمفكرين العرب جميعا فكثرت الضجة حوله حتى اصبح اصطلاح الادب القومي لفظا ضبابي الوقع مبهم المعنى يتيه الفكر في ممراته ودهاليزه . ولقد يكون صعبا ان نجد اليوم اديبين عربيين يتفقان على مضمون واحد للاصطلاح . ولعلنا كلنا ننصرف عن تعريف اللفظ بشيء من الغيظ والضيق . فسرعان ما نصطدم بالآراء الشائعة التي تحاول ان ترغمنا ارغاما على ان نقبلها ونلوي اعناقنا لها . فكأن هذه الآراء طاغية يحكم بأمره فلا بد لنا ان نخضع لاحكامه ونزواته مهما رفضها تفكيرنا .

ولقد اتيح لي ان اقرأ – خلال السنين الماضية – كثيرا مما كتب الكتاب حول «الادب القومي» وما ينبغي ان يتصف به ، فكان انطباعي المستمر حول التعريفات الشائعة انها ، على العموم ، تضيق الفكرة الحقة للقومية وتنزل بها الى مستوى اصغر منها واوطأ . وقد لاحظت ان ذلك « التضييق » يبرز على ثلاثة اوجه ساتناولها فيما يلي بالشرح والنقد : –

(اولا) لقد الف اغلب كتابنا ان يتحدثوا عن الادب القومي وكأنه يتجلى في الموضوع الذي يتناوله الكاتب العربي . فاذا تناول الاديب قضايانا القومية تناولا مباشرا عدوه اديبا عربيا يمثل الفكرة القومية حق التمثيل . واما اذا لم يكتب في تلك الموضوعات فانه في نظرهم ليس اديبا قوميا ، وما يكتبه بعيد عن الادب القومي . وهذه النظرة تجعل المظهر الايجابي للقومية هو التحدث فيها تحدثا صريحا فنحن ، عندها ، قوميون اذا نحن كتبنا في القومية ، ولسوف نصبح غير قوميين حين نكتب في اي شيء اخر غيرها .

ان هذه الفكرة ، في الواقع ، بعيدة عن العمق والحق كل البعد . ذلك انها تقع في خطأ فلسفي جسيم هو انها تنكر الجانب العفوي من القومية وتقيم في مكانه تعويضا خارجيا مصطنعا . فهل حقا ان كل من يتحدث في القومية يمتلك الروح العربية الصادقة ؟ وهل يفقد الاديب العربي روحه القومية اذا هو لم يكتب على الاطلاق في قضايانا القومية ؟ ان الجواب على هذين السؤالين يتضح اتضاحا كافيا حين نلاحظ العدد الكبير من الادباء الطالعين الذي يكرسون ادبهم للكتابة في شؤون القومية ولكنهم يكتبون بروح ادبية محضة تكاد تصيح صياحا بانها ليست روحا عربية ولا صلة لها بجو العروبة . ان حديث هؤلاء عن القومية لا يجعل انتاجهم قوميا ، وهم يكذبون على الروح العربية في كل حرف يسطرونه .

والواقع ان القومية في الادب اكبر واوسع من ان تتمثل في مجرد الموضوع الذي يتناوله الكاتب . وانما الادب القومي هو الذي يعبر تعبيرا اصيلا عن الروح العربية بكل ما لها من عفوية وانطلاق . انه يمثل ، دون ان يقصد ، لفتات ذهن الامة العربية وملامح شخصيتها الفكرية والروحية . وهو يحمل طابعها الشعوري ومستواها العاطفي والصفات العامة لشخصيتها . وهذا كله قابل لان يتجسد سواء اتحدث الكاتب عن القومية ام لم يتحدث . وانما العلاقة بين الادب القومي والموضوع الذي نكتب فيه علاقة عارضة لا شأن لها . فالعروبة اوسع من مجرد حديثنا عنها . انها تكمن في خدودنا واهدابنا ودمائنا وهي تجري مشتعلة في كلماتنا . ان اي ادب نكتبه ، في اي موضوع ، ينبض بها ويشير اليها . ولعل اصدق الادب قومية هو الادب الذي لا يدري انه قومي . كالطفل العربي الذي يتلقى انطباعاته في بيئة عربية ، فلسوف تنطق العروبة في كل ما يقول ويفعل سواء اعرف ام لم يعرف .

(ثانيا) والخطأ الثاني الشائع في تعريفات الكتاب للادب القومي هو الاساس المثالي الذي تبنى عليه النظرة الى ذلك الادب . ان اغلب الادباء الذين حاولوا تشخيص ملامح الادب القومي قد اشتقوا لادبنا صورة نموذجية رأوا انه ينبغي ان يكون عليها . وهم في هذا يتخطون الصفات الحقة للروح العربية ، ويحاولون ان يفرضوا عليها صفات اخرى لا تملكها . ان نظرتهم مثالية لا واقعية ، والادب القومي الذي يخرجون به الينا ادب مرسوم رسما ولا صلة له بالحياة العربية الواقعة .

اما المصادر التي يشتق منها الكتاب عادة ملامح الادب القومي النموذجي فابرزها مصدران اثنان : (الاول) هو تمنيات هؤلاء الكتاب واشتهاءاتهم المتحرقة . انهم ، بدلا من ان يصوغوا ادبا قوميا يمثلون به انفسهم ، يلجأون الى الاحلام والتمنيات فيروحون يرسمون صورة لادب هابط من سماء خيالية ، فيه الخصائص التي يتمنونها والملامح التي يظنونها احسن الملامح للادب القومي . وهؤلاء لا يعلمون ان القومية الحقة موجودة في انفسهم لا في السماء . وهم يجهلون ان الادب القومي كامن في عفوية اقلامهم ، فاذا كتبوا ببساطة كانوا كتابا قوميين على اجمل ما يشتهون . وانما يحرموننا من ذلك الادب لمجرد انهم يتغافلون عن كنوزهم ويستعيضون عنها بالاشتهاء . انهم يمتلكون ما يتعطشون اليه لو انهم نظروا فقط . فليتطلعوا الى انفسهم . انما يكمن الادب القومي هناك .

ولسوف نصل – اذا نحن تاملنا – الى الاعتقاد بان هناك فرقا شاسعا بين الادب القومي الحق والادب الذي يظن كتابنا انه الادب القومي الحق . ان « ما ينبغي ان يكون » ليس الا صورة لتمنيات

فردية يحلم بها الكتاب للادب العربي . واما ما هو كائن ، مـا هو الروح العربية الحقة ، فان صفته الكبرى هي انه عفوي وبريء وقد نبت بلا تصنع كما تنبت وردة برية زرقاء لم يتعهدها الا المطر والنسيم الرطب وضوء الشمس . وهذا الادب سيكون قوميا سواء اقصدنا ام لم نقصد .

اما المصدر الثاني الذي يشتق منه الكتـاب صورة نموذجية للادب القومي العربي فهو المصدر الاكثر شرا والاشد وبالا على عروبتنا وشخصيتنا . انه ادب الغرب . فلقد الف كثير من كتابنا ان يعتقدوا ان في الامكان نقل كل شيء من الغرب الى الشرق . ولذلك قرروا ان ينقلوا معالم الادب من اوربا الى ارض العرب . ان هؤلاء الكتـاب يتجاهلون الحقيقة تجاهلا مؤسفا . ولقد فاتهم ان الروح لا تنقل . واما الآلات الحديثة فهي لن تغير خلجة في مشاعر الفرد العربي الذي تكمن في عروقه روح الرمـال والمدن العربية القديمـة والتواريخ الدارسة . ان لنا نحن شخصية كونتها القرون السحيقة وترسبت فيها خلجات اجدادنا الذين جابوا اصقـاع الوطن العربي قرونـا وقرونا . ومتى كانت الحضارة المادية اكثر من شيء عابر ياتي ويذهب ويمحي ؟ وانما المهم هو ذهن الانسان وروحـه . ونحن في الوطن العربي نختلف في بنائنـا العقلي والروحي عن الاوروبيين ، بحيث يصبح من المستحيل ان ننقل روح الادب الغربي الى ادبنـا دون ان نسحق الروح العربية ونحملها مالا تطيق . وانما تحتاج الامة العربية الى ان تكتب ادبها بقلمها . ولن يجديها ان تستورد .

واما الصفة الكبرى التي ينبغي ان يتصف بها ادبنا القومي فهي صفة العروبة . ان ادبنا سيكون عربيـا . وهذا هو القانون الاعلى للفكر القومي ومن خطل الرأي ان نبحث عن كمال آدابنا في شيء سواه . ونقصد بكلمة « عربي » ان تتجلى في ذلك الادب كل الخصائص العفوية غير الواعية التي تكون مقومات الذات العربيـة . فلن يكون ذلك الادب صورة لاحسن ما في آداب اوربا ، وانما سيكون صورة للذات العربية والحياة العربية . والعروبة، على ما هي ، غنى وجمـال وخصوبة ، لا نحتـاج الى تزويقها ولا الى تمني التمنيات لها .

وهكـذا تكون الخطوة الاولى نحو كتـابة ادب قومي ناضج للامة العربية ان نطلق انفسنـا من عقالها فنتركها تعيش عروبتهـا وتعبر عنها بلا تصنع ولا قيود . ان القانون الذي ينبغي ان يطيعه الاديب القومي هو قـانون ذاته . فما يميل اليه في اعماق نفسه هو الصواب، مهما كانت آراء الغربيين الذين يقف امامهم مبهورا . انـه عربي ، وتلك هي حدود ابداعه ، فمن ضعف الرأي ان يترك كنوزه دفينة ويمد يديه يستجدي من ادب اوربا. وانما كان الادب الاوروبي اصيلا لانه كان اوربيا وعبر عن روح اوربا باخلاص . وكذلك لن يكون ادبنا العربي اصيلا الا يوم يكون عربيا .

(ثالثا) ثم نصل الى الخطأ الثالث الشائع في تعريف الادب القومي ، وهو يتجسم في الفكرة الساذجة المسماة بالالتزام . لقد شاعت هذه الفكرة شيوعا عظيمـا في السنوات العشر الماضية حتى خيل الينا ان الداعين اليها كانوا مستعدين لقطع عنق كل انسان يخطر له ان يناقشها. والحق ان الطغيان والارهاب اللذين لجأت اليهما هذه الدعوة قد كانا ولم يزالا ينمان عن ان منشأها شيوعي. ذلك على الرغم من ان كثيرا من القوميين قد اشتركوا ، ببراءة وحسن نية ، في ترويجها .

وملخص هذه الدعوة ان الاديب ، في انتاجه ، ينبغي الا يطيع دوافعه الفردية وانما يلتزم تصوير واقع المجتمع. عليه ان يخرج من حدود نفسه ليخدم المجموع . ومهما كان الارهاب الفكري الذي تسكت به هذه الدعوة خصومها فانها تبقى دعوة مهلهلة لا تصمد للنظرة المتأملة . والواقع انها ، من وجهة نظر المنطق والفلسفة ، ترتكز في جوهرها الى فصل شنيع بين الادب والحيـاة من جهة ، وبين المجتمع والفرد من جهة اخرى . فاذا كان واقع المجتمع شيئا لا تمثله حرية الفرد الحقة فما هذا المجتمع ومـا ملامحه ولماذا ينبغي ان نضحي بالفرد من اجله ؟ ومـن قال ان هذا المجتمع ينبغي ان يكون اي شيء غير ملامح افراده ؟

ان هذين السؤالين في الواقـع يلقيان الضوء على الجذور الفكرية الواهية التي ترتكز اليها دعوة الالتزام. ذلك انها ، عندما نحللها ، تتكشف عن خطأ جسيم في النظر الى الصلة بين المجتمع والفرد . انها تضع احدهما في دائرة منفصلة كل الانفصال عن دائرة الاخر ، بحيث اذا اراد الفرد ان يخدم المجتمع كان عليه ان يقتل حريته الذاتية اولا . فكأن نوازع الفرد العفوية معادية بطبيعتها للمجتمع . ومن تفريعات هـذا المعنى ان دعوة الالتزام تبدو وكأنها تفترض ان الواقعية التي تدعو اليها ليست صفة موجودة في نفسية الانسان وانما ينبغي ان يرغم الاديب ارغاما على اكتسابها وبذلك يكون اجتماعيا . ان انسانية الانسان ، على هذا ، ليست كافية لجعله واقعيا وانما لا بد له ان يفصل لنفسه ثوبا خارجيا من هـذه الواقعية المزعومة اذا هو اراد ان يكون قوميا .

من هذا التحليـل الموجز للعنـاصر الفلسفية التي تتضمنها دعوة الالتزام ، في نظرنا ، يبدو لنا بجلاء ان القومية عند دعاة الالتزام هي النقيض الفكري للحياة . فالمرء اما ان يكون حيا ، متمتعا بالحرية الفردية والسعادة، او ان يكون قوميا . ولذلك نجد هؤلاء الكتاب يخافون على الادب العربي الا يكون قوميا فيضعون له اسسا ومثلا وتعاليم يشتقونها من افكارهم المثالية عن المجتمع العربي دونما نظر الى الواقع الحق لذلك المجتمع .

ورأينا ان هذه الدعوة تعكس الحقائق الانسانية عكسا صريحا . فانما يتجسم واقع المجتمع حق التجسم عندما يعبر كل اديب عن ذاته دونمـا تصنع . ولسوف يكون الادب القومي واقعيا حقا عندما يكتب كـل اديب عربي في حرية كاملة . واذ ذاك ستصبح كلمة « الالتزام » كلمة منحطة يعدها الاديب القومي اهـانة ادبية تطعن كرامة ذهنه وتهين عروبته . ان العروبة ليست اتجاها قسريا يجب ان نتعلمه من الكتب والصحف ، وانمـا هي نحن ، ببساطتنا واندفاعاتنا . والانسان العربي هو القانون القومي الاعلى ، فلن يستمد مقاييسه من اقوال الملتزمين وانمـا سيشتقهـا من اعماق قلبه العربي النابض (*) .

وبعد فهذه هي الاخطاء الشائعة التي لمسناها في تعريف الادب القومي ، ونرجو ان يتاح لنا ان نتفرغ لدراسة المضمون الايجـابي لذلك الادب في بحث تال .

نازك الملائكة

(*) تعليق « الآداب » : كنا نود لو ان الكاتبة الفاضلة الانسة نازك قد اوردت او استشهدت بالمصادر التي رجعت اليها والتي توحي حقا بهذه الافكار عن مبدأ « الالتزام » ، فربمـا حالت بذلك دون الالتباس الذي لا بد للقاريء ان يقع فيه هنا .